القول الفصل

شرح الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة

دراسات إسلامية
نصوص

محيي الدين محمد بن بهاء الدين
الشهير بهاء الدين زاده

القول الفصل

شرح الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة

تقديم وتحقيق :
د. رفيق العجم

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى

1418هـ - 1998م

دار المنتخب العربي
للدراسات والنشر والتوزيع
ص. ب : 113/6311 - بيروت - لبنان

توزيع

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام - ص.ب: 113/6311 لبنان
هاتف: 4/791123 / 802428(01) - 220924(03) - فاكس: 603654(01)
المصيطبة - شارع بارودي - بناية طاهر - هاتف: 311310 - 301030(01)

التقديم

اعتبر جمع كثير من النقاد والباحثين والمحقّقين في مجال العلوم الإسلامية وتجديد اللغة العربية والنهضة أن العصرين المملوكي والعثماني كانا عصري انحطاط نضبت فيهما القرائح واقتصر فيهما الجهد على الترديد والتقليد والتصنّع في اللغة. ولم يستطع الأعاجم هؤلاء أن يفعلوا في لغة غريبة عن ذهنيتهم وطبعهم فعلاً مؤثراً، إن في المعاني أو في البنيان.

إلا أن استمرار البحث في ذاك التراث، الذي أنجز على يد هؤلاء، ولا سيما الأتراك منهم، وتحديداً بين القرن العاشر والثاني عشر، يفصح لنا عن جهود جمّاعة في التآليف والتفاسير استفادت من العطاء العربي والإسلامي السابق استفادة تامة تجلّت في كل ما تركه هؤلاء.

والدليل الشاهد هو ما يتم سبره والكشف عن مكنوناته في خزائن المخطوطات الموزّعة في العالم. حيث يعثر تباعاً على تآليف شرعية وعقلية. الشرعي منها اعتنى بتفسير التفسير على القرآن الكريم والحديث، ثم الشرح على العقيدة ومسائل الفقه وتحديداً الحنفي منها. أما العقلي فكان شروحاً بسيطة على بعض المقاطع الفلسفية والمنطقية من جهة وتنظيماً للعلوم والمصطلحات من جهة أخرى.

ولعلّ الجديد في تلك الحركة الفكرية منذ القرن الثامن الهجري هو هذا التوجّه الأصيل نحو الاعتناء بتعريفات العلوم والمصطلحات. أي الانكباب على عمل موسوعي أو معجمي يخصّ المفردات والحدود والعلوم يعرّفها ويحدّدها ويجمعها.

فلا عجب إن ظهر آنذاك كتاب الكليات لأبي البقاء الحسيني الكفوي

(المتوفى 1094هـ) وكتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (المتوفى 1067هـ) ومفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده (المتوفى 968هـ) وغيرها الكثير من الرسائل والمؤلفات.

ولقد ظهرت تصانيف غزيرة تتعلق في تفسير القرآن بمثل ما ظهرت تصانيف تتناول مسائل العقيدة من أصول الدين وأصول الفقه كما سنرى لاحقاً. والغالب على هذه الشروح العناية القصوى بأصول أبي حنيفة ومنذ القرن العاشر تباعاً، فلا غرابة بعدها إن أصبح المذهب الرسمي في الخلافة العثمانية المذهب الحنفي.

والأرجح لدينا أن هذا المسار للحركة الفكرية الإسلامية بعربيتها كان سيرورة طبيعية تَلَتْ مراحل العطاء الغزيرة في كل علم وفنّ فكان لا بد من بلوغ مرحلة التوقف للجمع والحصر، أي العمل الموسوعي الضابط. وإذ ذاك سعت القرائح والأقلام هذا المسعى.

بَيْدَ أن عمل الأتراك هذا، ولا سيما في مجال أصول الدين والعقيدة، خالطته وشابته الكثير من المعارف العرفانية الصوفية المنتشرة آنذاك في آسيا الصغرى. هذه المعارف المعتمدة على الإشراق والحدس، والبعيدة عن العمل البرهاني العقلي الرابط الذي خيّم تماماً على رأي أبي حنيفة ورسالة الشافعي.

لكن هذا الخليط الذي ظهر في الشروح والتفاسير كان ملحقاً بالعقيدة ولم يلعب دور الأساس فيها كما هو الحال عند السهروردي والحلاج. ولعلّ هذه الآراء الصوفية كانت قد تحوّلت في تلك الحقبة، قبل أن تصير تواكلاً، إلى فرق مساعدة في عمليات الجهاد على الثغور البيزنطية وفي صد حروب الغرب لاحقاً. كما شكّلت زوايا للتهذيب الخلقي والنفسي، بما سلكته من زهد وقناعة وتدريب على ممارسة الجلد والبحث والدرس.

ومن ثَمَّ شاءت الظروف أن نحصل[1] على كتاب «القول الفصل شرح فقه أكبر للإمام أعظم أبو حنيفة». فتصفّحناه حيث وجدناه عملاً موسوعياً

(1) وضع هذه الطبعة الحجرية بين أيدينا الدكتور علي دحروج مشكوراً.

يستحق العناية والتحقيق. فَتَمَّ ذلك بعون الله وبعض الجهد من طلابنا في المعهد العالي للدراسات الإسلامية ممّن يتدربون في المكتبة، ولا سيما أن الكتاب غني جداً بالشواهد من الآيات والأحاديث، وغزير بما ذكر فيه من الأعلام والأمكنة. أما النص فلا يخفى على القارىء ما ورد فيه من أخطاء لغوية أحياناً وجمل مبهمة طويلة أحياناً أخرى. إلا أننا فضّلنا تركه على حاله حفاظاً على الأمانة العلمية ولأنه مفهوم بشكل عام، وإذا ما صوّبنا لاقتضى ذلك فسحات طويلة. علماً أن هذه الطبعة الحجرية تشابه المخطوط، والكتاب لم يطبع طباعة محققة وينشر في حدود ما تقصّيناه.

ولقد جمع التقديم هذا على الفقرات التالية:

- شخصية المؤلف وحياته.
- مؤلفاته.
- بيئته الفكرية.
- طبيعة النص ومحتوياته.
- طريقة التحقيق.

شخصية المؤلف وحياته:

المولى محي الدين الرحماوي محمد بن بهاء الدين بن لطف الله الحنفي الصوفي، أحد الموالي الرومية الشهير ببهاء الدين زاده. (. . . . ـ 952هـ/ . . . ـ 1545م). لم يذكر تحديداً تاريخ مولده. قرأ على المولى مصلح الدين القسطلاني ثم على المعرف معلم السلطان أبي يزيد، ثم مال إلى التصوف، فخدم العارف محي الدين الاسكليبي وأجازه بالإرشاد[1] ذكر

(1) ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح، عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، مكتبة القدس، 1350هـ، ج 8، ص ص 293 ـ 294.
الغزي، نجم الدين، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، بيروت، الآفاق، 1979م، ج 2، ص ص 29 ـ 30.
البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول، وكالة المعارف نشر المثنى، 1955، ج 2، ص 238.
كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، إحياء التراث، ج 9، ص 121.
الزركلي، خير الدين، الاعلام، بيروت، دار العلم، 1986، ج 6، ص 60.

الغزي أن موطنه پالي كسرى[1] وأنه جاء إلى القسطنطينية حيث جلس في زاوية شيخه بعد وفاة المولى عبد الرحيم بن المؤيّد. وأنه لمّا مرض مفتي التخت السلطاني علاء الدين الجمالي وعجز عن الكتابة قيل له اختر من العلماء من يكون مقامك فاختار المولى المذكور لوثوقه بفقهه وورعه وتقواه. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وذُكِر أنه وقع له كلام في حق ابراهيم باشا الوزير، فحنق عليه، فلم يخشاه. ممّا يدل على صلابة شخصه وإصراره على قول الحقيقة. كما حكي أن النبي أهدى له تاجاً من المدينة المنورة في منامه. توفي في قيصرة[2] ودفن عند قبر الشيخ ابراهيم القيصري. وأورد ابن العماد أن الشيخ محمد بن بهاء الدين «كان عالمً بالعلوم الشرعية والفرعية ماهراً في العلوم العقلية، عارفاً بالتفسير والحديث والعربية، زاهداً ورعاً. ملازماً لحدود الشريعة، جامعاً بين علوم الشرع ومعارف الحقيقة.

وهذا يشير إلى الطبيعة الموسوعية في ثقافة هذا الجيل واختلاط الأمور الشرعية في ثقافتهم بالعلوم العقلية والفلسفية وبالمعارف الصوفية.

مؤلفاته:

اتفقت معظم المراجع على أن الشيخ محمد بن بهاء الدين كان شارحاً ومفسّراً وبالوقت عينه ملمّاً بالتصوف سالكاً فيه. ترك المصنفات التالية: بحسب ما ثبت[3]:

1 ـ شرح الأسماء الحسنى.

2 ـ شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة (وهو موضوع كتابنا).

3 ـ تفسير القرآن العظيم.

---

(1) ربما كانت مدائن كسرى.

(2) قيصرة أو قيصرية وكتبت قيسارية جنوب شرقي أنقرة في تركيا اليوم. جعلها أولاد قلب ارسلان مركزاً لهم. الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 421.
Seltzer, Leon E,Ed., The Columbia Lippincott Gazetteer of the World N.Y., Columb. Univ. Press, 1970, P. 922.

(3) الغزى، الكواكب السائرة، ج 2، ص 30.
ابن العماد، شذرات الذهب، ج 8، ص 294.

4 ـ رسائل في التصوف.

5 ـ رسالة التوحيد، الرد على ما قيل في حق الشيخ الأكبر. رسالة سر القدر. رسالة الوجود[1].

بيئته الفكرية:

عاصر الشيخ محمد أوج سيطرة الخلافة العثمانية وتوسعها وعظمتها، فشهد خليفتين: السلطان سليم فاتح سوريا والسلطان سليمان فاتح أوروبا الشرقية. ومع التوسع العسكري أنشأ السلاطين والوزراء في العاصمة والولايات المدارس قرب المساجد، بل تنافسوا على ذلك و«كانت هذه المدارس تنتظم طبقات ثلاثاً. أما الطلبة بالمعنى الدقيق فقد عرفوا بـ«صوفية» وهو نحت..... من كلمة صوفي العربية و«سوختە» الفارسية، ومعناها الملتهب (أي بحب الله والمعرفة). ولقد بلغ عدد هؤلاء الطلبة، عهد مراد الثاني، تسعين ألفاً منتشرين في أرجاء الامبراطورية، على ما جاء في إحصاء رسمي..... أما الطبقة الثانية، وهي أعلى مقاماً، فكانت تتألف من المعيدين، أو المعلمين. وكان العالم الشاب يحمل عند نهاية دراسته، لقب دانشمند، أو عالم، ليتخيّر واحداً من ثلاثة اتجاهات: هي: التدريس والقضاء والعمل الديني. أما إذا رغب أحد من هؤلاء في الالتحاق بأحد الصفوف العليا الخاصة بصغار العلماء أو كبارهم فكان يتعيّن عليه أن ينصرف، بوصفه دانشمند، إلى تحصيل العلم في إحدى المدارس، سبع سنوات أخرى. حتى إذا أتمّ تحصيله هذا، تقدّم إلى أداء الامتحان أمام المفتي، فإذا ما نجح رُشّح إلى منصب مدرّس. وكان هؤلاء المدرّسون ينقسمون بدورهم إلى طبقات عشر، مرتبة بحسب أهمية المدن، وكان صغار العلماء يختارون من بين مدرّسي الطبقة العاشرة. أما أصحاب المناصب العليا من كبار العلماء فكانوا يفدون على الامبراطورية العثمانية من مصر، في الغالب، ومن فارس في النادر، حتى إذا سلخوا في خدمة الدولة فترة من الزمان انقلبوا، في الأعم الأغلب، إلى أوطانهم الأصلية»[2].

---

(1) وردت فقط عند البغدادي، هدية العارفين، ج 2، ص 239.

(2) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية فارس والبعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين، 1968، ص ص 480.

وعلى الرغم من خلو كتب ثبت الأعلام من ذكر تفصيل لتنشئة الشيخ محمد بن بهاء الدين إلا أن الأرجح من الوصف السابق نشأته في ظلال هذه المدارس والمساجد وتفقّهه من معلميها ومشاربها مع تأثّره بشيخه الصوفي. وقد تجلّى هذا التأثر بما تركه من مصنفات صوفية جاءت على هيئة رسائل. علماً أن الحركة الصوفية انتشرت في تلك الحقبة انتشاراً واسعاً في المملكة العثمانية، ولاقت رواجاً من جمهور العامة بل «خضعت حياة الجماهير الدينية لتأثير مشايخ الطرق الصوفية (الدراويش) المنتشرة انتشاراً واسعاً في آسية الصغرى، منذ القدم، وفي الروم ايلي بعد ذلك بزمن، كالنقشبندية والمولوية والبكتاشية، بأكثر ممّا خضعت لتأثير رجال الدين الرسميين. والواقع أن نظام الدرجات المتصاعدة في المذاهب السرية كان مصطنعاً أبداً بنجاح كبير، في الطرق الصوفية الإسلامية. . . . وعلى الرغم من أن الخرافات نفسها كثيراً ما كانت مطية يستغلها المشعوذون لمآربهم النفعية، فلا بد من الاعتراف بما كان للطرق الصوفية من أثر في تهذيب العامة وتلطيف مظاهر الهمجية التي سادت حياتها. . .»[1].

وتجدر الإشارة إلى أن بيئة الشيخ هذه لاقت مع الانتشار السياسي والتعليمي نهضة عمرانية متطورة في حقبتها، إذ عهد سليم الأول ثم سليمان القانوني إلى المهندس المعمار «سنان» برئاسة المعمارين في السراية (سر معمار). فأنشأ بأمر السلطان سليمان «واحداً وثمانين جامعاً كبيراً - بينهم جامع سليمان الذي ضاهى جامع اية صوفيا، واثنين وخمسين مسجداً صغيراً، وخمساً وخمسين مدرسة، وسبعة معاهد لدراسة القرآن، وسبعة عشر مطعماً عمومياً، وثلاثة مستشفيات، وسبعة كتاتيب لحفظ القرآن، وسبعة جسور، وثلاثة وثلاثين قصراً، وثمانية عشر خاناً، وخمسة متاحف، وثلاثة وثلاثين حماماً، وتسعة عشر ضريحاً (أو قبة)»[2].

إن هذه النهضة مع نظام التعليم السابق الذكر تمدّنا بصورة حية عن مستوى الحياة الثقافية في حقبة الشيخ، ممّا يظهر لنا نمواً وازدهاراً في شتى

(1) المرجع ذاته، ص 481.
(2) المرجع ذاته، ص 456.

مجالات التحضر، وممّا يشير لنا بشكل غير مباشر إلى تألق العمل الفكري خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، حيث ترك لنا الكثير من العلماء المؤلفات الموسوعية والشروح المستفيضة في الفقه وأصول الدين. لكن الأرجح أن هذا العمل التجميعي الموسوعي كاد يخلو من الإبداع والتوليد لعوامل مختلفة وأسباب كثيرة.

فلقد رأى البعض أن حياة العثمانيين العلمية كانت خلواً «من الأصالة والإبداع، واتخذت سبيلها في مجاري التقليد والاتباع». ذلك أن العلم لم يكن يعني عند المسلم اكتساب معرفة جديدة، بل التمكّن إلى أقصى حد مستطاع من المادة التي أنتجتها الأجيال السالفة. وكان أعظم القدر والاعتبار يخلع على التفقه في الدين والشرع الإسلامي، الذي لم يكن ليفصل عن القانون المدني. . . . وإذ كانت أمهات الكتب القانونية موضوعة بالعربية، فقد اصطنع العلماء العثمانيون في آثارهم التشريعية، هذه اللغة أيضاً، في الأعم الأغلب، . . . . والواقع أن فضيلة العلماء العثمانيين ليست في عمق التفكير وجرأته، ولكنها في الذاكرة الجامعة والتطبيق الجلد الصبور»[1]. ولعلّ الكتاب الذي نقدم له خير دليل على رجاحة هذا الرأي. ولا سيما أن مؤلفه قد بلغ الوسع الكبير في شرح فقه أبي حنيفة (المتوفى 150هـ) الضئيل كمياً نسبة إلى الشرح، الذي فاق مئات الأضعاف كمّياً نص أبي حنيفة، في جلد وصبر وسعة بجمع لآراء وحجج وحجاج.

أن اطلاعاً سريعاً على شراح الفقه الأكبر لأبي حنيفة يؤكّد أن معظم هؤلاء من الشراح الموسوعيين الذين سبقوا أو لحقوا فترة الشيخ محمد بن بهاء الدين. مثال ذلك[2]:

* المولى الياس بن ابراهيم السينوبي (المتوفى ببلدة بروسا ـ بورسة اليوم ـ 891هـ).
* المولى أحمد بن محمد المغنيساوي (القرن العاشر الهجري) ولا سيما أنه ذكر في نهاية شرح الفقه الأكبر. تم الشرح سنة 639هـ.

---

(1) المرجع ذاته، ص 482.
(2) حاجي خليفة.

* أبو البقاء الأحمدي (القرن العاشر الهجري) ترك عقد الجوهر نظم نثر الفقه الأكبر سنة 918هـ.

* ابراهيم بن حسام الكرمياني المعروف بشريفي (المتوفى 1016).

وشرحه علي القاري في مجلد سمّاه منح الأزهر (منح الروض الأزهر)، وهو شرح كبير. وشرحه الشيخ أكمل الدين وسمّاه الإرشاد.

طبيعة النص ومحتوياته:

سبق أن ألمحنا إلى اختلاط شروح المؤلف الكلامية بمسائل فلسفية وتصوفية، فلا مندوحة إن اعتبر الكتاب عرضاً مسهباً لآراء المتكلمين والأصوليين إلى جانب الفلاسفة والمتصوفة، بل لعلّ القارىء يعثر في طيّاته على بعض الشروح الفلكية والطبيعية والطبية أحياناً، وقد عفّ عنها الزمان وتجاوزتها العلوم تجاوزاً كاملاً. كما أنّ المؤلف الشارح أغنى تفسيره ذلك بالعديد من الشواهد النصّية من القرآن وأقوال الرسول عليه أفضل الصلوات. حتى أن المتبحّر المتتبّع لانسياق المعاني يجد تجاوز شرح نصوص أبي حنيفة بمدى واسع، خرج به المؤلف عن الحد المتعارف عليه، ليُسهب ويُطنب في مسائل وفصول جمعها أشتاتاً، لكن عمله الإيجابي فيها تجلّى في ذاك الجهد الجمّاع ذي الطبيعة الموسوعية.

لم يُسجم الكتاب سجماً واحداً أو ينسّق بأنساق منتظمة، فقد خلا من المنهجية والتقسيم والتبويب الواضحين. حتى أن أقوال الإمام أبي حنيفة المميّزة بخط فوقها وردت متتالية وجاء عقبها الشرح مباشرة من غير فصل أو تبويب. ولم يقصد بهذا خلو الكتاب من الانتظام بفصول. فقد أورد مؤلّفه بعض الفصول بعنوان وبعض الفصول من غير عنوان. لكن تراتب الفصول لم يتتابع بنهجه ومضمونه تبعاً لمواضيع متصلة، بل تعقيباً على قول أبي حنيفة ثم إسهاباً وعرضاً لمسائل ومعاني متشتّتة يربطها بالموضوع السابق خيط، وأحياناً تشذ عن الموضوع. ويستثنى من ذلك القسم المتعلّق بصفات الله الذي تتابعت فصوله تتابعاً متناسباً مع صفات الله عز وجل السبع التي ميّزها علماء الكلام.

لغة الكتاب سليمة بشكل عام، مع اعتناء في تخيّر الألفاظ وانتقائها إلى حد التصنّع أحياناً على عادة الأعاجم. لكن الجمل طويلة في بعض المواضع

وخالية من الفواصل، كما أن النقط موضوعة في غير مكانها المناسب أحياناً. ولا يخلو النص من أخطاء لغوية ظاهرة للعيان في مواضع كثيرة، وركاكة في بعض التعابير. وعالم النحو تحيّره قراءة النص إن قصد ضبط بعض القواعد البسيطة، كما ذكرنا، ولعلّ ذلك من الكاتب أو الناسخ.

تضمّن الكتاب جملة مواضيع ومسائل جاءت على هذا المنوال:

- تقديم مطوّل تضمّن أدعية وتوسّل لله والرسول وتأكيداً على التوحيد المطلق مع عرض لطرق الإيمان بالعقل والمنطق والحجج والحجاج إضافة إلى خليط بسيط من الإشراقات.
- مواضيع متفرقة لطرق الإيمان والمعتقدات وقول لأبي حنيفة حول البعث.
- فصل في إثبات المعاد الجسماني، وفصل في المعاد الروحاني.
- فصل في استدلال الفلاسفة على أبدية النفوس البشرية، وفصل في مقالتهم في أمر المعاد وفصل في إبطال النافين حشر الأجساد.
- أقوال الإمام أبي حنيفة ومسائل مختلفة ومتعدّدة من الشروح.
- أقوال أبي حنيفة ومسائل الصفات.
- فصل في الحياة، في القدرة، في علم الله، في مذهب الفلاسفة أن الله لا يعلم الجزئي، في الكلام، في السمع والبصر، في الإرادة.
- أقوال وردود حول التجسيم والتشبيه وشروح مستفيضة.
- فصل في الدلائل السمعية على أفعال العباد، وفي بيان متمسّكات المعتزلة.
- فصل في الفضل، وفي النص.
- أقوال لأبي حنيفة مختلفة مع الشروح.
- أقوال لأبي حنيفة وشروح مفصّلة حول الجنة والنار والموت والبعث.

ويتبيّن ممّا تقدم خلو التراتب والتتالي من انتظام المواضيع انتظاماً منهجياً يراعي دقة المضمون وتسلسل مسائله. إلا أن المواضيع مواضع كلامية

عالجها أئمة الكلام من المعتزلة والأشاعرة إضافة إلى معالجة الأصوليين لها، لكن شرح الشيخ محمد لها جاء مشبعاً بأفكار المناطقة والفلاسفة والعلماء إلى جانب أصحاب الكلام، علاوة على بعض الشطحات الفلكية والصوفية. وقد ظهر فيها كلها متمسكاً بالموقف الحنفي منافحاً عن عقيدة أهل السنة والجماعة مدافعاً عن الخلافة مواجهاً للرافضة والمتطرفين في التمذهب.

طريقة التحقيق:

توفّرت لنا النسخة الحجرية المطبوعة في تركيا بمكتبة الحقيقة. ولم تُشر النسخة إلى مكان المخطوط. لكن شكل النسخة يطابق صورة عن المخطوط. ومن المؤكّد أن هذه المخطوطات موجودة في مكتبات اسطمبول.

رسم الناسخ خطه بخط نسخي. وجاءت الصفحة بمعدل 23 سطراً معدل كلمات السطر الواحد 12 كلمة ليّن الكاتب الهمزات ووضع الشدّات وبعض التنوين. جُمِعَ الكتاب على 413 صفحة. بدأ بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم سبحانك سبحانك ربي وأنت قبل تسبيح كل مسبّح سُبّوح». وانتهى بالقول: «فنحمد الله على تيسيره الاتمام، حمد الانصرام له ولا انفصام. وصلى الله على سيد الأنام محمد المصطفى بأفضل السلام وعلى آله وصحبه الكرام. وقع الإتمام في شهر ربيع الأول من شهور خمس وعشرين وتسعماية على يدي أضعف الفقراء محمد بن بهاء الدين بن لطف الله عمّهم الله بلطفه، وأظفرهم بعطفه، الحنفي مذهباً البسطامي مشرباً. سنة 935هـ». وهذا يظهر ابتعاد النسخ عن إتمام الكتاب بعشر سنوات. كما تظهر الخاتمة إنتماء الشارح المؤلّف لأبي يزيد البسطامي (الثالث الهجري) المتصوف المعروف.

حقّق النص على الشكل التالي:

- إعادة ضبط آيات القرآن الكريم وتصويبها في الهامش تماماً إن وقع فيها خطأ بكلمة أو أكثر في المتن. ووضع لكل آية هلالان متوجان في المتن وأسندت في الحاشية.
- إعادة ضبط أحاديث الرسول بطريقة ضبط الآيات، ووضع لها معقوفان في المتن، وأسندت في الحاشية.

- أعطيت ترجمة مقتضبة لكل عَلَم ورد في النص ولمحة عن كتبه ومذهبه عند الإمكان. كذلك الأمر بالنسبة للفرق. وإن لم يرد التعريف بكل من الأعلام عند وروده لأول مرة فقد ورد لاحقاً أحياناً، ممّا جعلنا نغطي كل الأعلام.
- تم فصل الفصول بصفحة جديدة.
- وضع خط تحت كلام الإمام أبي حنيفة لتمييزه.
- أبقي النص كما هو، وصوّبت بعض الكلمات النادرة التي تبيّن أن خطأها وارد في النسخ لتكرار الصواب منها لاحقاً.
- ورد التنوين عند الاقتضاء للإفصاح عن المعنى.
- ضبط النص بفواصل ونقاط قدر الإمكان.

وأخيراً نتمنى من الله التوفيق العون، والدعاء للشيخ محمد محيي الدين بن بهاء الدين الشارح الجليل.

رفيق العجم

كشاف الرموز المستخدمة في التحقيق

﴿ ﴾ الهلالان المتوجان: خاص بالآيات القرآنية.

[ ] المعقوفان: خاص بأحاديث الرسول.

1.... الرقم المتسلسل: خاص ببدء الصفحة الحجرية.

( ) الهلالان: خاص بكل كلام محدد وبالمصطلحات والتواريخ.

- المعترضان: خاص بكل عبارة تعترض الكلام للتوضيح.

: النقطتان: خاص بالإفصاح عما يأتي بعدهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك سبحانك ربي وأنت قبل تسبيح كلّ مُسبِّح سبوح. يا لك من شأن أجلّ وأعلى من أن يحاط بوصفه ويحصى ثناؤه بالقلب والروح **﴿تسبح لك السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ ﴿والطير صافات**[1] **بتسبيحك يبوح. يا من نفحات نفس الأنس من طيب ذكرك يفوح. ولمعان قبس القدس من نور شكرك يلوح. سرادق سماء ساحة سلطتك لسرائر الضمائر مفتوح. يا من سنا برق سواطح سبحات سبوحيتك للأسرار فتوح وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده﴾**[2] لكن كل تسبيح بالنسبة إلى جلالك تقصير. يا من منك بدأ الأمر وبك بدا وإليك المرجع وإليك المصير. فأذكرك امتثالاً لأمرك ذكراً كثيراً بلسان القلب وقلب اللسان في النفس وفي الملا. فأوف لي بعهدك وانجز فيَّ وعدك واكرني في نفسك وفي الملأ الأعلى. وأشكرك ولا أكفر بك وأترك من يهجرك فزدني شكراً قال رب اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري[3].

وصلِّ على من اصطفيته لنفسك وقرباتك. واصطفيته لنبوتك ورسالاتك. وارتضيته لفتح باب شفاعتك. واستخلفته لنشر آثار رحمتك. وأظهرته بأظهر آياتك. وأيّدته بأبهر بيّناتك. وحمدته بما أودعت فيه محامدك فسمّيته محمداً. فحمدك بما أنت أهل له وسبق الكل بأن كان محموداً وأحمداً. اللّهم صلّه بصلات صلواتك وتسبيحاتك عليه. وأوصل من كان من اهتدى بهداه صلوات إليه. ثم صدّقه في وعده وتفضّل به علينا. بتضعيف

---

(1) سورة الإسراء: الآية 44، سورة النور: الآية 41.

(2) سورة الإسراء: الآية 44 **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾**.

(3) سورة طه: الآيتان 25 ـ 26 .**﴿قال رب اشرح لي صدري * ويسّر لي أمري﴾**.

صلواتنا منعكساً منه إلينا. وسلّم على آله ورثة كمالاته. وعلى أصحابه حملة كلماته.

وبعد، فلمّا كان التقابل الأصلي والتضاد الحقيقي بين الإمكان والوجوب، وحاز الوجوب كلّ كمال وبقي في الإمكان كل نقض ومسلوب؛ كانت الكمالات التي في الممكنات ظهورات الذات الأحديّة، بملابس الأسماء والصفات، استيلاء على عوالم الإمكان بالبروز والظهور، كما استولى عليه بالتأثير وتسلّط قدرته على كل مقدور. فكانت الكمالات الإلهية حزب الله الغالب، والخزي والسوء على من يعاديه ويغالب. فمراد الحق من إعطاء كمالاته على عباده ليس إلاّ الإظهار. فالعلماء الظاهرون المظهرون علوم الله على أعداء الدين أنصار. ومن حدّث بما أنعم الله عليه فهو من أنصار الدين، ومن كتمه وأخفاه فهو في أداء شكره من القاصرين. فالعلم في طورَي الوجوب والإمكان أشرف الفضائل، وعلى فضل صاحبه أدلّ الدلائل. ومع ذلك هو خلف صالح يتأبّد ويتواتر على صاحبه حسناته. بعدما مات وماتت معه أوزاره وسيئاته.

ولقد كنت منذ زمان أعزم على أن أبقى علماً نافعاً يحقُّ الحقَّ ويؤيّد الدين. ويهتدي بالنجم دلالاته في ظلمات الضلال إلى عين اليقين، ليعود عليَّ عوائده، ولا ينقطع عني فوائده. ويكون سيفاً مسلولاً على أعناق الجاحدين، وسهماً مرميّاً في صدور المستكبرين. ويكون لي ذكراً بعدي، وأجراً في لحدي، وذخراً لعودي. لكن كان يوهنني في عزمي ذاك هجوم الصوارف، ويصرفني عمّا عزمت عليه ما يُرى في الزمان من كساد المعارف، وتداني اعناق همم أعيان الرجال، وتقاصر أيدي الأئمة عن بلوغ درجات الإجلال بإعراضهم عن الحق الآجل، وعكوفهم على الباطل العاجل. بحيث انسلبت عن القلوب حميّة الفحليّة بإيثارهم الحال على المآل. وغلبت عليهم الشهوة الأنثوية في ميلهم إلى المآل. حتى كانوا يقدّرون مقادير الأشخاص بالملابس والمناصب. ويعدّون التعدي على الأموال والأنفس من المفاخر والمناقب. ويجعلون مجالس العلم ملاهي وملاعب. كلاّ لعمري انّ هذا الزمان صعبٌ. وكيف والأموال والأعراض نهب. والولاة قطّاع والرعاة سباع، والرؤوس رعاع. والله ما شوهد مثله في عصر ولا نقل بسماع. يؤتمن على

اللحم الكلاب. ويستطاب على نغمة الهزار صوت الغراب.

إن هذا الشيء عجاب. حتى قوّى الله عزمي عليه، وشرح صدري إليه. إذ ناداني سرّي بلسان الحال، ونبّهني عن نومة الغفلة فقال: ألم يشرح لك ربك صدرك بأنوار معرفته. ووضع عنك وزر القسوة والظلمانية بآثار رحمته. ألم يجدك ربك يتيماً عن العلم والفهم فآواك. ألم يجدك ضالاً عن سنن الحق فهداك. فأما يتيم الحق فلا تقهره بالإعراض. وأما سائل الصدق فلا تنهره بالإغماض **﴿وأما بنعمة ربك فحدّث﴾**[1] شكراً. وأمّا عطيّته فأظهرها فعلاً وذكراً. وأما العلم فلا تكتمه عهدك، وورّثه بعدك، وذكّر في قوله تعالى: **﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلاّ الذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾**[2].

فتذكّرت وكنت واعيه. وتنبّهت وأحببت داعيه. فصممت عزمي. وأحكمت جزمي. على أن أكتب ما أجرى الله على قلمي. ولا أغيّر ما انعكس أولاً من قلبي إلى رقمي. مع اني ما نظرت في العلوم العقلية قريباً من ثلثين، ولم أتعوّد الفكر والنظر عيناً بعد عين. لكن أرجو أن يلهمني الله في مبادىء النظر. ويغنيني عن دقائق الفكر. فجعلت أتدبر. وشرعت أتفكر. فنظرت نظراً صحيحاً. وتحققت تحقيقاً صريحاً.

إن الواجب على العاقل أوّل كل واجب، والمهم له قبل كل مقاصد ومطالب، أن لا يتغفّل لحظة، ولا يتعطّل لمحة، بعدما أنعم الله عليه بالمزيد، وسدّده بالعقل السديد. بل يجتهد أشدّ الاجتهاد، ويعتصم بحبل الصدق والسداد. ويجالي في الأنفس والآفاق نظره. ويختبر خير كلّ شيء وخبره. ويتفكّر في أنّه من أين وفي أين وإلى أين. هل ابتدأ الأمر في هذا المشهد أو انتقل من الغيب إلى العين.

ويتخلص من ظلمات الجهل والضلال. ويهتدي إلى نور الأنس والوصال. ويعلم بالفكر الصريح والنظر الصحيح. إن له إلهاً واحداً أحداً

---

(1) سورة الضحى: الآية 11.

(2) سورة البقرة: الآيتان 159 ـ 160.